الحلقة الثامنة

فى بؤر الضياع بين الخاسرين

وضاع الأندلس بعد أن لفظت غرناطة أنفاسها لتكمل رحلة فى ممرات الضياع أسهم فيها الخاسرون كل بنصيب ، ومن البداية غافلين ومتغافلين ، لاهين ومتلاهين ، متآمرين على أنفسهم قبل أن يتآمروا على غيرهم ، لقد ضاع الإسلام فى القلوب حينما كان التخلى عن مُثله العيا ومبادئه الخالدة ، فضاع الأندلس بضياعه ، إذ قبل أن يفتقد الأندلس كفردوس يتمثل به المتمثلون فى مراثيهم ، افتقد الأندلس من داخل ذاته ، حيث فُرِّغ من محتواه الذى من أجله عبر رافعاً راية الإسلام ، مبشراً برسالة لإنقاذ البَشرية ، وها نحن نرى كيف أن هذا الأندلسى بعد أن افتقد مضامينه الأساسية التى تلزمه بعمق الإيمان وقناعه واقتناعه بما من أجله خُلِقَ ملتزماً بمنهج محدد ، يرتكز على الوعى بالذات المؤمنة المتضامنة المتآلفة ، المزكية لنفسها بالتقوى ، بدلاً من استسلامها لغرائزها وفجورها ، المتحلية بالصبر والحق والمتواتصية بهما ، أين نحن من كل هذا ؟

بلا شك ولنبدأ مع الخاسرين من البداية ، لم يعبر الفاتحون إلى الجزيرة عبوراً خالياً من الشذوذ والاستثناء ، فإن كانت الغالبية عبرت بإيمانها وقناعتها ، مستبسلة وطالبة للاستشهاد ، فهناك مَن عبر - ولكل قاعدة استثناء - محمولاً بعصبيته ، محملاً بشهواته وأطماعه وأهوائه ، لم تكن تُرى حينما يشتد غبار التلاحم بغية الانتصار وتعلو صيحات التكبير لتغطى على كل الصيحات ، ولكن سريعاً ما يتحرك أصحاب هذه الشهوات منقبين عن الغنائم مشبعين لأطماعهم متغافلين وغافلين ، ومنهم اللاهين والمتلاهين ، وقطيع من المتعصبين النافرين ، وقد استيقظت فيهم رواسب كامنة لم تذب عبر الرحلة الطويلة فوق

رمال صحراء الشمال الإفريقى ، ولم تنقيها مياه وديانه وسهوله ، أو تخفف من حدتها روعة مناظره الخلابة فى بداية الفتح ، فالتغافل واللهو والتعصب والعصبية ظواهر تبرز لتختفى وتتكيف مع الأحداث ، تتسم وتضيق حسب مايؤهل لها من ممرات .

وهكذا ومن البداية طالعتنا هذه النماذج المختلفة مواكبة للفتوحات ، تتجسد فى تغافل عن مسيرة الأحداث وتلاهى بسواقط الأشياء ، وإيقاد للنعرة والتعصب حسب المواسم والمناسبات .

كان تغافل الغافلين والمتغافلين فى تأمينهم لمسيرة الفتح منذ البداية وعدم الحذر فى المواقف والعلاقات واللجوء إلى قرارات لم تؤمن عواقبها فيُحتاط فى اتخاذها ، هذه الغفلة التى هى فى غنى عن التعريف ، وهذا التغافل المجارى للغفلة والمبرر لها امعاتيا عايشا الأندلس منذ البداية وواكبا فى مختلف مراحله وشتّى عصوره ولاة ، وإمارات ، وخلافة ، وطوائف .. حتى مراحل الاحتضار .

نُفصّل القول ما أمكن فيما أشرنا إليه بإيجاز ، كان على الفاتح أن يتابع الفلول الهاربة فوق الجبال أمام دفعات فتوحاته حتى لا تعود لتتجمع باحثة عن الثأر ، واضعة لها كحد أدنى أقداماً ولو فى شكل بقع قد لا تُرى إلا بعين الحذِر والمحتاط ، فقد نجح « بلاى » فى تأسيس مملكة « إشتبريش » الصغيرة ، ومن ثَمّ كانت إيذاناً بمولد الإمارات المسيحية فى شمال الأندلس ، فضلاً عن أن العرب تركوا أراضى مقفرة تفصل بين زليقة وأرض الإسلام ، وما كان من استغلال ألفونسو لهذا الوضع واستيلائه على هذه الأرض المقفرة ، وهكذا لم تصل الفتوحات إلى غايتها بتأمينها لإطارها الخارجى ، فضلاً عن أن الفتوحات كثيراً ما كانت تخضع لحساسيات وشخصنة للمواقف ، وإلا كيف نبرر استدعاء موسى ابن نصير وطارق بن زياد فى بداية الفتح من قِبَلِ الخليفة فى دمشق وما حدث لهما بعد ذلك ؟

هذا إلى جانب مايتمثل من غفلة وتغافل عبر العلاقات مع الخصم سواء فى ذلك المصاهرات أو التوادد الغير المحسوب ، كزواج عبد العزيز بن موسى من قوطية أرملة لذريق ، وما أُرخ بشأن سيطرتها على زوجها وحثها على أمور خاصة بتسيير الدولة تجسد انفراده ، وتحقق طموحات قد تضر اكثر مما تنفع مستغلة فى ذلك ما تعرَّض له والده من محن ، وتصرفات أخرى أثّرت عليه فى اتخذها ورأى بعض المؤرخين أنها كانت من أسباب قتله سنة ٩٨ هـ ، وهذه مصاهرة أخرى لمونوسة البربرى وهو قائد من قادة الفتح الإسلامى ، لدوق نصرانى ، عقد معه معاهدة سلم ومهادنة أمَّنه بها من الغارات ، كذلك راجع مونوسة أمر عبد الرحمن الغافقى ، ومع هذا أرغمه هذا الغافقى على السير فى الغزو ، فأبلغ حماه الدوق سراً بذلك ناصحاً له بالاستعداد ، وكُشفَ أمره واجتُثت رأسه ، فضلاً عن مزج حاشية مَن بيدهم الأمر بعناصر دخيلة يُشَكُّ فى ولائها ، بل حتى اللغة الأسبانية عرفت طريقها فى عصر الإمارة إلى مَن عملوا فى مختلف أمورها دون حسابات مضبوطة ، وكيف أن التسرب أسهم فيما بعد فى تكثيف رياح التفكك والتفتت التى نراها تهب فى سماء الغفلة والتغافل ، لتحمل إلينا نذير الارتداد المجسَّد فى عمر بن حفصون واعتناقه للنصرانية وماصاحبه من أحداث محزنة ، وماتم من التبرؤ منه ، وتميل بعض المصادر إلى أنه مات على المسيحية ، ويشيرون إلى نبش قبره وكيف أن وضعه يرجح هذه الفرضية .

ولا يعنينا بالضرورة هذا الحفصون بقدر ما يعنينا ما يمثله هذا التيار المهتز من مواقف أملتها الرغبة فى السيطرة والنفوذ ، والتعلق بالسُلطة وشخصنتها ، وكيف أن هذا قد وصل فى نهاية عصر الخلافة إلى حد تبنى الزيف بتنصيب خليفة وهمى ، نُصِّبَ باسم هشام الأموى وذلك بعد وفاته بأعوام كما أشار إلى ذلك ابن حزم فى « نقط العروس » (ص ٨٣) ، وفى هذا المضمار نذكر أيضاً هذا ألفونسو السادس الذى ارتمى فى قصور طليطلة لاجئاً ، وبعد أن تعرَّف عليها وفتحت له الأبواب ، عرف بدوره كيف يحتلها بعد ذلك . وهذا البطل يوسف بن تاشفين بعد أن حاصر طليطلة لم يساعده أحد من ملوك الطوائف

مما حدى به إلى الرجوع عن استعادتها ، بل إن بعض هؤلاء لم يتورع عن التحالف مع الخصم ضد ابن تاشفين كالحالة المحزنة نسردها بامتعاض . وهى الخاصة بالأمير عبد الله بن باديس بن حبوس المتحالف مع ألفونسو السادس ، وبدوره المعتمد بن عباد . ولِمَ لا ؟ يستغيث بهذا الفونسو السادس ضد جيش المرابطين حين حصاره لإشبيلية ، المعتمد بن عباد صاحب العلاقات المقنَّعة مع القشتاليين والتى آلت إلى ماآلت اليه ، ومن ثَمَّ فلم تكن القيادات وبخاصة فى عصر دول الطوائف بمنئى عن الخصم وطموحاته ، فكانت أمامه الأبواب مفتوحة ومعه تتم التحالفات البغيضة ، وأسرار هؤلاء الطوائف منشورة فى عرض الطريق ....

لقد وصلت غفلة الغافلين ، وتغافل المتغافلين إلى مستوى أهَّلَ فى النهاية لابتلاع الجميع وعبر جرعات متوالية ، كل تؤهله غفلته إلى نفس المصير ، حتى الأبطال - رغم أنهم حاولوا احتواء الغفلة - يعترفون بنزاهة جديرة بالإشارة والتقدير بأن كان عليهم ألا يتغافلوا ، نلاحظ هذا بإعزاز على لسان يعقوب المنصور الموحدى ، بطل معركة الأرك ، الذى (كما ورد فى « روض القرطاس » لابن أبى زرع الفاسى ص ٢٣٠) أنه ما ندم فى خلافته إلا على ثلاث ، والذى يعنينا من الثلاث هذه الخاصة بإطلاق أسارى الأرك حيث يتنبأ المنصور الموحدى « أنهم لا بد له أن يطالبوا بثأرهم » . حتى ملك قشتالة حينما دخل إلى إشبيلية كان ذلك حسب بعض المصادر (الاستقصاء للناصرى) بمساعدة بنى الأحمر ، ولنا معهم - وغرناطة - لا نقول وقفة وإنما إشارة متميزة ، فغرناطة التى استوزت ابن نَغْرِلَة اليهودى فى الوقت الذى كان هذا اليهودى فى ساحات أوروبا المسيحية الوسيطة ، يُحرَق فى أياء الآحاد حين الخروج من الكنائس أو فى بعضها ، تأكيداً لاستمرارية لعنة المسيح عليهم ، ها هو فى أندلسنا المتفتح ، السمح ، لا يُسهم فقط فى الحياة الفكرية والحياة اليومية بصفة عامة ، ولنا عودة إلى هذا الموضوع فيما بعد ، وإنما يشارك فى السُلطة ، هذه السُلطة فى غرناطة التى تبنت التغافل واستمرت تلوك الغفلة حتى لفظت أنفاسها ، فقد كانت وهى فى لحظات الاحتضار بين الأمير وعمه الزغل ، وكلاهما أبو عبد الله ،

يصل الحد بالملك المهزوم ، واللامبالاة إلى هذا الموقف البغيض من تهنئة خصمه فى الدين لاستيلائه على مالقة ، بهنىء فرناندو وإيزابيلا باستيلائهما ، لكى يهنىء بعد ذلك ، ولِمَ لا ؟ إن صحت التهنئة - من منطوق ساخر - بأخذهما المملكة منه وتسليمه بإذلال ومذلة لمفاتيحها .

غفلة وتغافل ، نرى أصداءها لدى المعاصرين لهما ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، لسان الدين بن الخطيب وما كتبه فى « أعمال الأعلام فى مَن بويع قبل الاحتلام » حيث يُبرز لنا إلى أى حد سيطرت الغفلة وعَمَّ التغافل ولم ينل المُلك من الرعاية ما يؤمِّنه .

غفلة وتغافل ، هكذا أسهمت عبر مسيرة الأندلس فى تشجيع وتدعيم مسيرة اللاهين والمتلاهين ، هذا غافل يلوك غفلته ، وذاك لاهى يتسلى بمجونه ، ولِمَ لا ؟ يتفاخر بخلاعته وانحلاله ، تناغم اللَّهو مع مواكب الغفلة مزكياً لها ، متلاحماً مع مسايريه من المتلاهين ، فهم بدورهم إمعات لهم ، كما أن المتغافلين إمعات للغفلة ، يسيرون فى الركْب الذى نلاحظ اتساعه مع ضيق الانضباط وقصور الحزم فى قيادات الأندلس ، مَن يطالع وبخاصة الأدب نثراً وشعراً فى الأندلس ، لا يمكنه أن يخفى اندهاشه بقدر ما لا يمكنه أن يحجب انبهاره وإعجابه ، فيقدر ما يعجب وينبهر بقدرة الإبداع والإشراق ، بقدر ما يندهش أمام هذه الحرية والتحرر من كل القيود حينما تعبر عن مجونها ولو عبر صوَر تُبرز لنا جوانب من الانحلال والتفسخ ، أسماء تذكر رجالاً ونساءً ، ولا ندرى أنكتفى بتسجيل ما قدَّموه من إبداع أم نشير أيضاً إلى ماجاء فى هذا الإبداع من تصوير لمناحى المجون والمغالاة فيه ، ونكتفى بسرد نماذج ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فهذه « ضروب » الجارية قى عصر عبد الرحمن الأوسط ، الذى تعلق بها .

وقدَّم لنا صاحب « نفح الطيب » المقرى (الجزء الأول ص ٣٢٦ وما يليها) ما قدَّم من وصف إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن هذا الأوسط الذى ما تورع فى شهر رمضان من أن يترك لغرائزه وشهواته ما يجعله يستدعى

الفقهاء سائلاً لهم عن كيفية التوبة والكفّارة ، وعن مجالسة هذا الأمير المغنى الشهير زرياب ، حملت لنا المصادر الأندلسية ما حملت إلى حد أن الأندلس دخل فى منافسة مع المشرق فى إطار الترف والاسترخاء ، حتى إن زرياب كثيراً ما كان يُحاكَى ويُقلَّد كنموذج سلوكى ، ولن نطيل كثيراً مع هذا الأمير ، فما أكثر الأمراء الذين انشغلوا بملاهيهم أكثر من انشغالهم بحكمهم ، وتجاوزت جلسات الضرب والمنادمة جلسات تسيير الحكم والاهتمام بشؤون الرعية ، ملهاة تنفتح على ملهاة ، وتفاخر فى هذا المضمار ، إلى حد أن إبراهيم بن الحجاج بعد أن تغلب على إشبيلية ووصل إلى مسامعه ما وصل عن جارية بغدادية اسمها قمر ، فأرسل فى طلبها الأموال لشرائها ، أموال كان من الأولى أن تؤمِّن حياة رعيته وتخفف من حدة معاناة الضعيف منهم . ويطالعنا الحاجب عبد الرحمن بن المنصور كمثال آخر ممن تسلطت عليهم شهواتهم ، وقادتهم غرائزهم إلى حد الفسق الصريح ، بل ذُكر عن هذا الحاجب أنه حتى فى غزواته كان يصطحب معه قرناء السوء والمنادمة .

مدن تُحاصَر ، وصراعات مريرة مع الخصم المترقب ، وبلاطات تزهر بالمجون واللامبالاة ، تلهو إلى حد المغالاة والإفراط ، فهذا المعتضد بن عباد والى المعتمد ، يغالى فى لهوه وافتتانه بالدنيا حتى فى سكرات الموت ، مستدعياً لا نقول فقيهًا يرتل له القرآن ، وإنما مغنياً يشدو إلى جانبه وهو على فراش الموت (كما أورد ذلك ابن الأبار فى « الحلية السيراء » ، جـ ٢ ، ص ١٣١ ومايليها) .

وأمثلة كثيرة يمكن للمتتبع والقارئ لتراث الأندلس أن يسترسل فى ذكرها ويتوسع ، وبخاصة حينما تتراجع قدرة الانضباط وتبرز عوامل التأزم ، ولِمَ لا ؟ التفكك والتفتت ، عصر الطوائف الأولى ونهاية الخلافة ، وعبر دول الطوائف مرة أخرى رغم احتواء المرابطين ومن بعدهم الموحدين ، فها هى نهاية الخلافة تقدِّم لنا نموذجاً من خلال « صبح » أم الخليفة الطفل هشام بن الحكم المؤيد ، وكيف كان سلوكها فى فترة محرجة كانت فى أمس الحاجة للصرامة لمواجهة

الأعداء ، والفتن والصراع على حدٍ سواء ، ولِمَ لا ؟ هذه ولادة بعد طروب مع الفارق ، فطروب كانت طروب بما تحمله الكلمة من معانى ، بينما ولادة كانت بحق ولادة فى إبداعها شعراً بقى حتى يومنا هذا يتردد إعجاباً وانبهاراً بهذه الشاعرة ، بنت المستكفى ، الخليفة الأموى محمد بن عبيد الله ، وكان لها ما كان من مساجلات شعرية مع عشاقها أو مريديها إن أردنا لها المداراة بما هو أميل إلى الوقار فى سلوكها بالرغم مما يصرح به شعرها من أمور غير مستساغة كابنة خليفة للمسلمين ، وإن كان والدها بدوره ليس ببعيد عن هذا المضمار وذلك حتى قولها كمثال :

أمُكِّنْ عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلتى مَن يشتهيها

(كما جاء فى « تاريخ الفكر الأندلسى » لـ « أ . ج . بالنثيا » ص ٨١ ، نقل حسين مؤنس) .

ولم يقف اللّهو والتلاهى باللاّهين والمتلاهين عند هذا المستوى من التعبير الذى امتزج فيه الإبداع بالمجون ، والإشراق بالإخفاق ، وإنما - وهذا ملفت للنظر - كان هناك مَن لا يكتفى بممارسة مجونه ولهوه ، وإنما يلزم بسلوكه المنحرف الآخرين من أصحاب السلوك السوى حتى القضاة والفقهاء ، فهذا عامل الموحدين على غرناطة أبى سعيد بن عبد المؤمن ، يلزم ابن جبير - وهو غنى عن التعريف لما أسهم به من حضور فى أدب الرحلات - بعد أن استدعاه أن يكتب له كتاباً وهو على شراب ، فمد إليه يده بكأس ، فأظهر ابن جبير الامتعاض قائلاً : « يا سيدى ، ما شربتها قط ، فقال له : واللّه لتشربن منها سبعة » ، فلما رأى العزيمة شرب سبع كؤوس ، فملأ له أبى سعيد بن عبد المؤمن الكأس من دنانير سبع مرات ، وصَبَّ ذلك فى حجره . وما كان من ابن جبير إلا أداء فريضة الحج بعد ذلك تكفيراً لشربه .

هذا ، ولم يقف مجون اللاهين والمتلاهين بهم عند هذا الحد ، بل كان هناك مَن يمارس الشذوذ من منادمة الغلمان ، بل وحتى فى جلسات الحكم ، كما حدث لابن أبى بكر بن عمار وزير المعتمد ومغازلته الغلمان فى حضرة المعتمد . ولعل

ما جاء فى (المغرب فى حلى المغرب ، لابن سعيد ، محققه شوقى ضيف جـ ١ ، ص ٧٦) أبلغ دليل على ما وصلت إليه بعض مدن الأندلس من ممارسات لا يمكن إغفالها فى هذا الموضوع ، خيث الشذوذ فى قرطبة وصل إلى حد ممارسة المخنثين علانية لانحرافهم ، كهذا الذى اشتهر بالهيدورة ، حيث كان يُضرب به المثال ، وكان هناك ضرب ابن زيدون الذى كان يُتمثل به فى التعريض ، فيقولون : هو من ضرب ابن زيدون ، حيث غطت شهرة العهارة فيه حيزاً ملفتاً للنظر .

وهكذا تكاملت وتناغمت مواكب الضائعين أو مَن أسهموا فى ضياع الأندلس أو الفردوس المفقود ، هذا بغفلته أو تغافله ، وذاك بلهوه أو تلاهيه ، فى الوقت الذى كان فيه الخصم المواجه يترقب ويتحفز منقباً عن مناحى الضعف ومعارج القصور لينفذ منها ويباغت هذه الفئات البَشرية التى لم يبق لها من الإسلام إلا الشكليات والمظاهر ، بل والتسميات والمسميات ، ومع هذا لا يُنكر أن من بين هاته الفئات مَن حافظ على دينه واحتفظ بمُثله وقيمه الخالدة ، ولكن تكالبت « الذئاب على خراف » ترعى فى فيافى فتنها وتلوك دسائسها وترتع فى حماسات جاهلية تجاوزها الإسلام بتسامحه وسماحته .

لقد استيقظت الغرائز ، ويقظت الشهوات يزكّى بعضها بعضاً ، وقد كان طبيعياً لهذا الذى ترك غرائزه وشهواته تقوده بلا تقنين ولا معيارية أن ينعكس على ذاته مبرزاً لما فيها من نعرات وترسيبات طفت مرة أخرى بعد أن احتواها الإسلام فى مراحله المشرقة وظهرت لتفجر وتنفجر ، وتدمر وتدمر ، فهى كامنة كترسيب فى الأعماق من الخطأ أن نرى مسيرة الأحداث بمعزل عنها ، ومن البداية ، تعايشت منذ بداية الفتوحات ، مرة تخمد وأخرى تشتعل حسب الظروف والمناسبات وما تمليه الوقائع والأحداث .

وهكذا رأينا كيف كان مصير موسى بن نصير الفاتح وطارق بن زياد ، وإلى أى حد لعبت الدسائس والمؤامرات أدواراً عتمت مسيرة ومصير الأبطال ، بل وشارك موسى بن نصير ابنه عبد العزيز فى نفس المصير التآمرى ، وما هذه إلا أمثلة

نسوقها ومن بداية الفتح ، فلقد عبرت الصراعات إلى الأندلس مع عبور الفاتحين ولاحقت مختلف مراحل الأندلس وفتراته ، تتنوع ، وتتعدد وتختلف فى رموزها بل وعناوينها ومسمياتها ، ولكن تظل فى جوهرها تُعبِّر عن تعصب وعصبية وحماسات جاهلية قَبلية وعشائرية تصدى لها الإسلام بمُثله السمحة وتسامحه ليتجاوزها ، طارحاً كبديل التعارف والتآلف توطئة للتضامن والالتحام ، تخف نيران العصبية وتهدأ حينما تعلو راية الإسلام ويعمر الإيمان فى القلوب ، فيندفع المسلم مع أخيه المسلم إخاءً فى اللّه وتفانياً فى إعلاء كلمته ، بنيان يشد بعضه بعضاً ، ولكن النفس البَشرية ليست بالضرورة - وفى كل مراحلها - تتمتع بالتقوى ليفلح مَن يُزكِّيها ، فكثيراً ما يطغى الفجور وتسيطر الغرائز وتنتفخ الذات وتتشخص بدلاً مَن أن تتسامى وتتفانى وتقتنع بما أعطاها اللّه مطمئنة راضية مرضية .

وعبر الأندلس مع ولاته ضروب الفتن حتى إنه فى فترة لا تتجاوز نصف قرن أحصينا من الولاة ما يتجاوز العشرين ، ولم تكن فترة الإمارة بدورها بعيدة عن مواكب الفتن والصراعات ، وقد زكيت نتيجة لتنوع السكان وعدم تجانسهم وتباين انتماءاتهم القَبلية والعشائرية ، ولم تقف موجات الصراع عند فئات دون أخرى ، فعرفت طريقها إلى المولَّدين من أهل الأندلس ، كما عرفت طريقها حتى إلى ساحة الحياة الفكرية بين الفقهاء والعلماء والكتَّاب ، صراعات هنا وهناك ، ودسائس تلقى بفائض من الضحايا وضحايا لضحاياهم ، قاتل ومقتول شُغِلوا بمكائدهم أكثر من انشغالهم بالعدو المتربص والمترقب ليثب من جديد وينقض ، وقد أتاحت له نيران الفتن والمؤامرات والدسائس والكيد والتعصب ممرات يعبر منها ليُزكىَّ هذا ضد ذاك ، يمد يد التحالف للشقيق مؤلباً له على شقيقه ، يفرِّق حتى يسود ، ويُشعل النيران حتى تنطفىء ، يوقظها بسموم مكائده والقوم فى غفلتهم غافلون ، وبملهاتهم لاهون ، كل يغنى على ليلاه ، وكأننا بالأندلس وقد تحوَّل إلى ساحة متعددة المرامى والأطراف ، كل يقذف بما لديه ضارب أو مضروب ، وذهب وانقضى عهد الإمارة وحلَّت الخلافة لتهب فى نهايتها مع

رياح سقوطها ، وتتزايد وتزداد رياح الفتن الهوجاء ، تتعالى صيحات الاستغاثة حتى بالخصوم والأعداء ، وتأتى دول الطوائف بمزيد من فتنها وصراعاتها رغم الاحتواء المرابطى لإيقاف مسلسل الخسران والضياع ، ومن بعده الموحدى ، وفى كل فتنة يتقلص جسد الأندلس الجريح ، وتُختزل مسافاته ، ويضيق مجاله ، يتراجع الأندلس رغم استغاثاته وأنّاته مفتقداً لقواعده التليدة ، فها نحن وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نذكر لهذا الأندلس الجريح كيف أنه وفى نحو ثلاثين عاماً (٦٢٧ - ٦٥٥ هـ) وعبر وابل من الأحداث ، وقد كان يشغل ما يقرب من نصف شبه الجزيرة الإيبيرية انتهى به الأمر إلى رقعة متواضعة تقلص فيها وانكمش ، مدافعاً عما تبقى له مجسداً فى مملكة غرناطة الحبيسة .

أنهت الفتن والمؤمرات ، وقد تزيت برداء العصبية ، متقيئة لحماسات الجاهلية ، على هذا الفردوس الذى غاص ومن البداية فى لجج التمزق ، فردوس أراده البعض متشخصناً متفتتاً يبتلع من المتربص جرعة بعد أخرى ، تلحف بوباء هذه الصراعات بعد أن حملها معه من المشرق مغلّفة فى أعماقه لتنتشر كفعل ورد فعل ، وتتسرب كترسيبات كامنة تنتظر الأزمات لتطفو ، والمناسبات المواتية لتتفجر كجزئيات ، كل ينفرد برقعته ، منصباً لذاته منه وإليه ، وكم كان معبراً عن ذلك ابن حزم القرطبى فى « نقط العروس فى تواريخ الخلفاء » (برواية الحميدى ، تحقيق شوقى ضيف ١٩٥١ ص ٨٣) حينما خطت يداه « أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين ، ويُخطب لهم بها فى زمن واحد : وهم خلف الحصرى بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم ، ومحمد بن قاسم بن حمود بالجزيرة ، ومحمد بن إدريس بن على بن حمود بمالقة ، وادريس بن يحيى بن على بن حمود بُباشْتَر » .

شتات وتطاحن ، كل يدافع عن موقعه أقدامه ولا يرى أبعد من ذلك ، وغاب الشمول الإسلامى بمعيارية الأخرة فى اللّه ، لتجاوز كل الحساسيات ، ولِمَ لا ؟ فجور النفس وتطلعاتها الطامعة فى متاع الدنيا وزينتها ، ولم يقف مسلسل التطاحن والصراع ، والتعصب والعصبية ، والشقاق والفُرقة عند حد

الفئات ، وإنما تكثّف وتقعّر حتى وصل إلى حد التصارع بين الشقيق وشقيقه ، بين الابن وأبيه ، وهكذا تقاتل الأبناء والآباء والأخوة والأعمام ، وأشعلت نيران الشقاق فى البيت الواحد ، ونسوق كمثال ننهى به عرضنا عن مآسى الصراع والتعصب ، ولِمَ لا ؟ وقد أنهى الأندلس ومعه غابت شمسه وانطفأ نوره الإسلامى ، ونعنى بذلك ما حدث فى اللحظات الأخيرة لاحتضار غرناطة الحبيسة ، وقد أوردنا ذلك تفصيلاً فيما سَلَف ، ونعود لنُذكّر بما وقع بين ابن عبد الله محمد وبين عمه الزغل ، تحتضر غرناطة وحكّامها بدلاً من الاستبسال والاستشهاد فوق أرضها ، كان كل يسعى ليكيد ويدس للآخر ، الابن وعمه ، ويُسدل الستار بعد رحيل غرناطة من أرض الإسلام ورحيل حكّامها الخاسرين ليلتحقوا بمن سبقهم فى بؤر الضياع بعد أن سقط الغافلون والمتغافلون ، وازدحمت باللاهين والمتلاهين ، وعمرت بالدساسين والانتهازيين والمتآمرين ، وتحوّل الأندلس العملاق من خلالهم إلى نعوش تتدافع فى مواكب الخسران ، ومن خلفها وحولها حملة القماقم من البكّائين والمتباكين ، ممهدين من خلال هذا الموكب الجنائزى لمسيرة عبرت حتى يومنا هذا القرون . وسوف نكتفى فى الحلقة التالية التى سوف نخصصها لاستكمال جولتنا فى بؤرالضياع ، وفى هذه المرة بين هؤلاء البكّائين والمتباكين ، من خلال نماذج ، وعلى سبيل المثال لا الحصر .

* * *